أمهات المشكلات الاجتماعية

مشكلات الأسرة

للدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بالأزهر

تمهيد :

تعددت فى هذا العصر المشكلات الاجتماعية وتشعبت فروعها واتسعت جوانبها ، وسيزداد كل ذلك امتدادا وتعقدا كلما نمت المدنيـة وسطعت أضواء العـلم والعرفان فى الزوايا التى لما تزل مظلمة من العقول البشرية . وهكذا يصبح حل تلك المشكلات الاجتماعية وقهرها والتخلص من أشواكها الحادة من الصعوبة والعسر بمكان بقـدر تلك التشعبات وإذا كانت هذه الصعوبة أمرا محققا كانت مهمة المسئولين الرسميين — كوزارة الشؤون الاجتماعية مثلا — شاقة ، بل خطيرة . فأما مشقتها فهى تنجم عن شدة سهرهم على معالجة هـذه المشكلات المترامية الأطراف ، وأما خطرها فينبغى أن يكون حافزا لهم على وجوب العناية باختيار الأفراد الذين توكل إليهم معالجتها إلى حد التردد وطول الأناة ، لأن الأقلام التى تترجم عن عقول غير متثبتة من معارفها تنتج شر النتائج ولو كانت مرسلة فى طلب الخير المحض ، إذ الجهل خير من نصف العلم كما تقولون .

لذلك نحن نوجب على أنفسنا — قبل أن نوجب على غيرنا — أن نسير فى هذا الطريق الشائك الوعر سير الحذر المتمهل الذى يحدد لكل خطوة موضعها قبـل أن يخطوها تقديرا منا للمسئولية الثقيلة الملقاة على عاتقنا حين نعرض لمعالجة بعض المشكلات الاجتماعية خصوصا فى هذه الظروف القاسية التى تحدق بنا الآن ونحن نجتاز مرحلة من أخطر مراحل التطور والإنتقـال .

غير أنه لاينبغى أن هذا الحذر وذلك الاحتياط يحولان بيننا وبين اقتحام هـذا البحر اللجى من المشكلات مهما كنا على يقين من أنه يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وتكتنفه ظلمات بعضها فوق بعض بل يجب علينا أن نساهم فى تشييد تلك المنارات التى لنا موطد الأمل فى أن تعظم مع الزمن حتى تصير كافية لإرشاد سفن الحيـاة الاجتماعية بمصر واقتيادها إلى شاطئ السلام والأمان ، بل إلى مرفأ الفوز والانتصار .

ولقد شئنا أن نبدأ بحوثنا هذه بمعالجة مشكلة الأسرة معالجـة علمية مؤسسة على أدق ما وصل إلينا من آراء أساطين الاجتماع فى العصر الحديث ، معلقين عليها بما يعين لنا من فكر شخصية مرحبين بالنقد أصدق ترحيب ، لأن غايتنا المثلى هى الوصول إلى الحقيقة فى ذاتها أولا ، وتحقيق أجل نواحى السمو الاجتماعى فى مصرنا العزيزة ثانيا .

أما حكمة بدئنا بمشكلة الأسرة فهى واضحة ، إذ أن الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، والخلية الأساسية فى جسمه إذا نظرنا إلى التكوين ، وهى قلبه النابض إذا نظرنا إلى الاحتفاظ بالحياة ، وهى محوره إذا نظرنا إلى دوام الحركة والنشاط . وفوق هـذا كله فان الأسرة هى الصورة الأمينة للدولة ، أو المرأة التى تنعكس عليها هويتها كما هى ، أو اللسان الصريح الذى يترجم عما يكنه فؤادها . وقصارى القول هى كما وصفها العالم الاجتماعى الفرنسى دوركيم بقوله :

" إن الأسرة هى مجتمع كامل يمتد أثره إلى نشاطنا الاقتصادى كما يمتد إلى نشاطنا الدينى والسياسى والعلمى وماشاكل ذلك ، وإن كل ما نعمله من أعمال هامة ولو قليلا هو صدى من أصدائها " .

إذا كان للأسرة كل هذا الشأن وكان كل ما يأتيه المجتمع من أفعال لا تندرج أنواعها تحت حصر ولا يحصيها عد ليست إلا ثمار غرسها ، أو أصداء أصواتها على حد تعبير دوركيم ، فقد كان من الطبيعى أن نبدأ
بحوثنا بمعالجة مشكلتها ، ولكن لا ينبغى أن يفهم من كلمة الأسرة ذلك الإطار الضيق الذى يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى والذى لا يدرك السواد الأعظم تعريفا لها غيره . كلا ، فليس ذلك إلا جانبا ضئيلا من جوانب الأسرة الاجتماعية التى نود أن ندرسها هنا دراسة علمية مؤسسة على تاريخ الجماعات البشرية منذ نشأتها البدائية إلى العصر الحديث .

ولقد أردنا أن نقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام : ندرس فى القسم الأول منها نشأة الأسرة ونتتبع تطوراتها المختلفة التى تعاقبت عليها خلال هذه القرون الطويلة ، ونبرز الفروق بين المظاهر المتباينة التى خلعها عليها الزمن فى عصوره البعيدة المدى . ونتناول فى القسم الثانى كيان الأسرة ونظرات الأجيال المتعاقبة إليه ، وما احتدم بين أهل تلك الأجيال من مجادلات حول معضلات ذلك الكيان : كالطلاق وتعدد الزوجات والميراث وما شاكل ذلك . ونعنى فى القسم الثالث بالدور الذى قامت به الأسرة ولا تزال تقوم به فى حياة الفرد ثم فى حياة الدولة ، بل فى حياة المجتمع كله . وإليك التفصيل :

١ — نشأة الأسرة وتطوراتها ونماذجها المختلفة

(أ) نشأة الاسرة وتطورها :

يحدثنا التاريخ وعلم السلالات البشرية بأن الصلات التى وثقتها الطبيعة بين أفراد الأسرة[1] قد بدت على ممر العصور ولا تزال تبدو عند مختلف الشعوب فى عدد هائل من الصور المتباينة والمظاهر المتعارضة ، فتارة نجد بين أفرادها قرابة أبوية فحسب ، وأخرى نشاهد فيها

(١) لا فرق فى ذلك بين الأسرة بمعناها الضيق الذى لا يتناول إلا الزوجين والأولاد ، والأسرة بمعناها الواسع الذى يشمل جميع الأقارب على نحو ما سنبين ذلك المعنيين فى موضعهما .

قرابة أمومية ليس غير ، وثالثة نرى فيها قرابة من الجانبين ، ورابعة نقف فيها بإزاء تعدد الزوجات ، وخامسة نلقى أنفسنا أمام توحيد الزوجة ، وسادسة نلتقى فيها بالزواج المشترك أو الزواج الاشتراكى كزواج جميع الأخوات برجل واحد — كما يوجد فى بعض مقاطعات الصين أو كزواج جميع الإخوة بامرأة واحدة — كما يحدث فى نجد تبت ، وسابعة نعثر فيها على الزواج المؤقت أو الذى يباح فيه الطلاق ، وثامنة نصادف فيها الزواج الأبدى الغير القابل للانحلال ، وغير ذلك من الاصلاحات التى يسميها البعض أنظمة و يستكثر عليها البعض الآخر هذا الاسم الذى لا ينبغى أن يطلق إلا فى حالات التقنين والتثبيت . ولا جرم أن الباحثين المحدثين عندما وقفوا أمام هذا المنظر المعقد حارت ألبابهم وترددت أقلامهم ، وأخيرا أقدموا بعد الإحجام على بدء مذاهبهم بنظريتين : فأما أولاهما فهى ما نستطيع أن نسميه بنظرية الثبات أو الاستقرار ، ومجملها أن النموذج البدائى العام ، بل الطبيعى الأوحد ، هو الأسرة المؤلفة من زوج وزوجة وحيدة وأبنائهما على نحو ما هو سائر فى أوربا فى العصر الحاضر ، أى أن هذا النموذج العصرى هو الذى احتفظ بصورته البدائيـة احتفاظا تاما تقريبا واجتاز الأخطاء الاجتماعية والآثام الأخلاقية التى اقترفتها الإنسانية خلال العصور المتتابعة ، إذ أن جميع الصور الأخرى التى ظهرت فيهـا الأسرة على مسرح الحياة مباينة لهذا النموذج البدائى والعصرى وما ليست إلا فسادا فى الطبيعـة وانحرافا عن الفطرة وضلالا عن الصراط السوى . ومن أشهر العلماء الذين صدعوا بهـذه النظرية ودافعوا عنهـا دفاعا قويا مجيـدا الفيلسوف الفرانسى دى بونالد ، وهو فى هذا تقول :

"إن النوع البشرى قد ابتدأ وجوده بأسرة واحدة ، و برهان ذلك محسوس ، وهو أن بقاءه يستمر بوساطة أسر ، وأننـا لو فرضنا أنه لم يبق منه إلا أسرة واحدة لكانت كافية فى تكوين المجتمع من جديد" .

ومن أنصار هذا الرأى الذين تأثروا بدى بونالد تأثرا واضحا العـالم الاجتماعى الفرانسى "لى بليه" وتلاميذه والعالمـان الانجليزيان ، سومنيرمين ، وستيرمارك .

أما النظرية الثانية المعارضة للأولى وهى نظرية الاختلاط Lathesedelapromiscuite فمؤداها أنه لم يكن فى مبدأ الإنسانية إلا اختلاط فوضوى بين الجنسين ، وأن العلاقة بين ذكور البشر و إناثهم كانت على أتم ما يكون من الحرية ، وعلى الإجمال لم يكن هناك أى وجود لما ندعوه الآن بالأسـرة . ومن أشهر أشياع هذه النظرية العلماء : لوبوك ، وباشوفين ، ومورجان .

هذا هو موجز النظريتين المتعارضتين . و يرى علماء الاجتماع المعاصرون أنهما كلتيهما خاطئتان لإفراطهما فى المغالاة ، و يعتقدون أن الحق فى هذه المعضلة هو أن الأسرة لم تنشأ بادئ ذى بدء على الصورة التى هى عليهـا فى العصور الحديثة فى أوروبا ، كما يدعى أصحاب الرأى الأول ، وهم يجزمون بأن كثيرا من عناصر الصورة الحالية للأسرة هى محدثة

نسبيا ، ولكنهم يرون كذلك أن الإنسان البدائى قد عرف الأسرة وارتبط بروابطها منذ نشأته ، إذ من الزيف أن يقال إن الجماعات المنحطة بعيدة عن القواعد ، طليقة من القوانين فالأسرة فى تلك الجماعات خاضعة لقوانين قاسية وتقاليد ضيقة ثقيلة الحمل كما سنرى أثناء مرورنا — مع علماء الاجتماع — بالنماذج المختلفة للأسرة .

(ب) النماذج الأساسية للأسرة :

١ — ألكلان التوتيمى La clan totimque [1] — يرى أنصار الرأى المعتدل الذى أسلفناه آنفا من علماء الاجتماع العصريين أن أولى الصور البدائية للأسرة بمعناها الواسع هى ألكلان التوتيمى أى الجماعة التى تألفت من أفراد يعتبر كل منهم الآخرين أقارب له ، ولكنهم جميعا لا ينظرون إلى هذه القرابة إلا من حيث إنها هى الرابطة بين الجميع وبين هذه القدامة الأبوية العليا ، وهم يغضون عن كل ما عدا هذا الاعتبار من صلات القرابة . أما التوتيم نفسه فهو كائن حى أو شيء مقدس ، وهو فى أغلب الأحايين حيوان أو نبات تحمل الجماعة أن تدين بانحدارها منه اسمه الذى هو رمزها الأوحد ، وهى فوق ذلك تعتقد بأنها تساهم فى طبيعته مساهمة تختلف سريتها وغموضها كثرة وقلة باختلاف ظروف تلك الجماعة وأحوالها . فإذا كان هذا التوتيم ذئبا مثلا فإن جميع أفراد الجماعة يعتقدون أن جدهم الأعلى ذئب ، وأن فيهم جميعا شيئا من الذئبية . ولهذا هم يدعون أنفسهم بالذئاب .

تعتبر إذا هذه الجماعة أسرة مؤلفة من أقارب وإن كان أفرادها لا ينظرون إلى هذه القرابة إلا من ناحيتها المعنوية المقدسة . فحسب ، كما أسلفنا . أما الصلات الدموية فهم لا يعتبرونها ولا يعملون على تمتينها ، بل بالعكس هم يضعفونها ويجدون فى محوها ، إذ يحظرون المصاهرة بين أفراد الجماعة .

يوجد التوتيم عند الجماعات البدائية فقد عثر العلماء على آثاره فى الأزمان الغابرة عند سكان .

الكهوف ، كما التقوا به لدى الأمم القديمة المتمدينة قبل تاريخ مدنيتها ، وهم لا يزالون يجدونه الآن بارزا ملموسا عند الشعوب التى ربطت بينها روابط التأخر والانحطاط وإن لم تجمعها صلات الجنس أو اللغة أو المكان وذلك من فصل سكان أستراليا الأصليين ، وحمر أمريكا الشمالية ، وهنود أمريكا الجنوبية ، وياكوت اسيريا ومن إليهم .

يسوق الاجتماعيون العصريون للتدليل على أن هذه الجماعات المغرقة فى الانحطاط كانت خاضعة لقواعد قاسية برهانا واضحا وهو تلك الظاهرة العامة لدى جماعات ألكلان

(١) نحتفظ هنا بهاتين الكلمتين الفرنسيتين لأننا لم نجد لهما مقابلين دقيقين فى اللغة العربية بإزاء معناهما الجماعة البدائية التى يقدس أفرادها حيوانا أو شيئا لاعتقادهم أنه جدهم الأعلى الذى انحدروا منه ، وقد ترجمنا أولاهما وهى : ألكلان فى مواضع أخرى بالقبيلة أو البطن أو الفخذ ولكنها هنا اصطلاح فى لغة علماء الاجتماع فلا يمكن أن تؤدى معناها إحدى تلك الكلمات الثلاث السالفة .

التوتمي ، وهي خطر التزاوج بين أبناء الجماعة الواحدة وبناتها ، واعتباره جريمة وجعل الإعدام عقوبة لمرتكب هذه الجريمة . وهم يعللون على هذه الظاهرة بقولهم : من هذا يتبين زيف الزعم القائل بأن الجماعات البدائية خاضعة لرغباتها وغرائزها بحسب ، ولا تقيد بقوانين دينية كقطعان الحيوانات .

٢ — الأسرة الأمومية — لدينا من الأسباب العلمية ما يحملنا على مسايرة العلماء : موريه ، ودافي ، ولانج ، في دعوى أن التوتم كان في المبدأ ينتقل من جيل إلى جيل بوساطة السلسلة الأمومية وحدها ، أما اليوم فهو لا يقتصر على هذه السلسلة وإن كنا لا نزال نجد هذه الظاهرة سائدة في عدد من الجماعات المنحطة كبعض سكان أمريكا الجنوبية . وكيفية هذا الانتقال أن الطفل كان لا يحمل إلا اسم جده الأموي ، وبالتالي كان لا ينتسب إلا الى توتم أمه . ومعنى هذا أن الجماعة كانت مؤلفة من الأفراد المنحدرين من نسائها . فحسب ، أما الزوج — وهو أجنبي قطعا — فقد كان ينتقل إلى مقر أسرة زوجته ليعيش معها في صف أدنى من صفها ، بل إنه كان أحيانا يرفع جرية إلى أسرة زوجته وينزل لها عن جزء من صيده ، وأما أولاده فلا يحملون اسمه ولا توتمه الخاص ، وإنما هم يحملون اسم أمهم وتوتمها كما قلنا .

على أنه لا ينبغي أن نخلط بين هذه الحالة وبين الظاهرة الاجتماعية الأخرى التي حدثت لدى بعض الجماعات المستمتعة بحظ من الرقي وهي ظاهرة نظام الماتريارکا

الذي كانت فيه المرأة مستمتعة بسلطان وسيادة حقيقيين ، إذ أن السلطان في الجماعات التوتمية لم تكن للمرأة نفسها وإنما كان لأسرتها ومتناوله الفعلي هو أخوها أو خالها الذي بيده كل السلطة ، أما المرأة ذاتها فانها — فضلا عن خلوها من السلطة خلوا تاما — كانت في أغلب الأحايين موضع احتقار تلاقي من سوء المعاملة مالا طاقة لها باحتماله .

٣ — من الأسرة الأمومية الى الأسرة الأبوية — غير أن هذه الظاهرة لم تلبث أن تطورت تدريجيا — شأن كل ما في الوجود — فبدأ الأب يحس بما في موقفه هذا من ضعة ومهانة بجعل يجتذب إلى ذاته شيئا من السلطان ، وقد نجح فعلا فنقل زوجته إلى حيث تعيش أسرته ، وقد اقتضى هذا أن ينشأ أولاده بين عشيرته وإن كانوا قد ظلوا أول الأمر ينتسبون إلى توتم أمهم إلا أنه كان من طبائع الأشياء أن تضمحل الصلة الأمومية مع الزمن وأخذ الصلة الأبوية في الطغيان عليها شيئا فشيئا حتى انتهى الأمر بانتقال الأولاد إلى اسم أبيهم وتوتمه ، وهكذا حل الانتساب الى الأب محل الانتساب إلى الأم ووجد نظام البنوة المعتمد على السلسلة الأبوية وحدها ، ذلك النظام الذي ساد الشعوب المتمدينة في الشرق والغرب الآريين وإن كانت صوره مختلفة ومظاهره متباينة بتباين حظوظ تلك الشعوب من المدنية .

الدكتور محمد غلاب